واقع " النحو" التعليمي العربي بين الحاجة التربوية و التعقيد المزمن

الدكتور : ابن حويلي ميدني

قسم الأدب العربي

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

جامعة الجزائر (الجزائر)

ملخص:

فاض الكلام ، ماضيا وحاضرا ، في أهمية فهم طبيعة النحو العربي التربوي ، وسبل تدريسه وتلقينه وفق منهج علمي ، وفي ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة . وكان أن اختلفت وجهات النظر وتباينت إلى حدود التضارب بعد التقارب ، و سارت النتيجة على وتيرة واحدة يطبعها الخوف والنفور من كل تجديد في الرأي أو تفكير في السعي إلى بحث علمي جاد، يكشف الداء ويصف الدواء على بينة من أمر منطقي يشفي غليل الدارسين.

Résume :

Dans le passé comme dans le présent, les mots abordent sur l'importance de la nature de la grammaire scolaire arabe, et les possibilités de son enseignement selon les méthodes scientifiques, et les études linguistiques modernes.

.

مقدمة :

إن الحديثَ في موضوع طبيعة النحو العربي من حيث التدريسُ والفهمُ و التطبيقُ قد كثر وتنوّع ، ماضيا وحاضرا ، وسال في وصف المعضلة حبرٌ وفير، فتباينت الأقوال والأحكام ، وتعدّدت الآراء والأفهام، حتى بدا للمتأمل أن خوض غمار الحديث في هذا البحر اللجيّ ضرْب من فضول القول والمجازفة المجْلَبَة للملل والضَّجر، بل قد يراها بعضُ الناظرين صورةً باهتةً تكرّرُ أحاديثَ بليت، وصيْحاتٍ خفتت، وأقلاما جفّت، وألواحا بعثرت، ولا طائلة تطلب من وراء تفاعلات الآراء والأنظار، واختلاف الوجهات والأفكار ، حتى أنه قد سكت الآن عن خوض (بحر الكلام) في هذا الموضوع كثير من العلماء الدارسين والمفكرين الباحثين من محافظين ومجددين ... **فهل يكون من الأجدر بعد هذا للإنسان السوي أن يسكت مثلما سكتوا ولو إلى حين ؟ ... وهل يسلّم كما سلّموا بأن الحديث في النحو طُبِخَ حتى احترق؟ ... و بعدها يصرف النظر ثم يخلص إلى أنه لم يعد من الإمكان أكثر مما كان ، وأن ليس هناك ما يقال إلا ما قد قيل ، وأن الكلام في مثل هذا الباب بات مكرورا مُمِلا، لا يقدم في الأمر شيئا ولا يؤخّر.**

إلا أنّني- وعلى النقيض مما سبق- لا زال يخامرني اعتقاد راسخ بأن طرْح قضية تعلّم اللغة بجميع مكوِّناتها البنوية والدلالية في غاية الأهمية . والمتشائم هو من يقول : اكتفِ بما قيلَ وارْضَ بما تناهى إليك ولو كان " جَعْجَعَةً بِلا طَحِين" ... مع العلم أنه لا وجود للغة طبيعية في واقع الحياة البشرية تعيش على حال مطلقة بعيدة عن" سلطان الضبْطيّة " ، ذلك (الناموس) الذي نسميه (نحوا) ، ويسميه غيرُنا (Grammaire). و يتميّز هذا

المكوّن الرقابي الأساسي في اللغة الطبيعية بوظيفة ربْط الصُّوَر اللفظية إلى معانيها، وربط المعاني المتصورة إلى ألفاظها بغية استقامة الأداء الوظيفي لعملية التبليغ البشرية ... ، ولولاه ما استقام الكلام ولا فُهم القصدُ.

والحديث عن إشكالية ضبط (وظيفة اللفظ في الجملة) هو عقدة موضوعنا ، والمرسم (المحتاج) إلى وقْفة منّا ، ومطارحة الآراء بهدف تسديد مسار العقل للكشف عن طبيعة النحو في اللسان العربي وتصحيح مفاهيمه ، وتبيين الحكمة من وجوده، وعواقب إهماله . مع العلم أنه قد سبقَنا اجتهادُ الكثيرِ من أهل الفكر وأصحاب البحث في تيْسير تطبيقه ، وتسهيل اكتساب آلياته، والحفاظ على مكانته ... ، بينما اجتهد آخرون – في اتجاه معاكس – يعملون على الإطاحة برأسه والعمل على إضْعَاف سَطْوته ... **وبعد أن خرَجوا عن طوْعه وتمرّدوا عن سلطانه وَصَفُوهُ بالرّذيلة ... ، فهل (النحو) – هو فعلا كما زَعموه– " آفةُ اللغة " ؟ ... أم هو ركنٌ تأسيسيٌّ محتوم في بناء اللغة، لا يصلح أمرُها إلا بوجوده ؟**

1 – النحو : المفهوم والمصطلح بين القديم والحديث .

1 / 1 – مفهوم النحو و وظيفته بين التراث والحداثة :

خصّ الدارسون العرب عبر الأزمان طبيعةَ هذا النحو العربي ودورَه في الحفاظ على الكلام البليغ والمنطق السليم، خاصّين إياه بعناية بالغة، درسا وتطبيقا ، وحفظا و تنسيقا، لأسباب رأوها دينية واجتماعية وأخلاقية وسياسية ... ، كما اعتقدوا فيه شفاء من " داء اللحن وعيوبه " إثر تفشي (سوء التعبير) على لسان المتكلمين ممن دخل متأخرا في حظيرة الفئة الناطقة باللسان العربي المبين ، ولم تكن العربية في طبعه وسليقته (القرون الأولى للهجرة). ومن أجل ذلك بُذلت جهود جبارة في سبيل إرساء قواعد الدرس

النحوي ثم البلاغي، فكانت تعقد الحلقات فتثار الأنظار وتتلاقح الأفكار، في أحضان المساجد والكتاتيب، و مجالس العلماء والأمراء والأسياد ، وفي حضْرة كل مَنْ يثمّن قيمةَ " الكلمة والكلام " ، ويعرف ما للقول الصائب من تأثير وأثر في النفوس المطمئنة.

وساد الاعتقاد ، منذ ذاك الحين، عند الكثير من المربِّين (المفكرين والممارسين) بأن تعلم النحو وتطبيقه على لسان المتكلمين تِرْيَاقٌ كافٍ شافٍ من كل " خطأ أو لبس " ، أو عيّ و" انحطاط " ، حتى قال فيه أحدهم :

النحوُ يبسطُ من لسان الألْكَنِ والمرءُ تكرمُه إذا لم يلْحَنِ
وإذا طلبتَ من العلوم أَجلَّها فأَجلُّها منهَا مُقيمُ الألسنِ

وقال آخر :

لو تَعْلَمُ الطيرُ مَا في النحْو مِنْ شرَف حَنّت وأنّتْ إليه بالمناقيرِ
إنّ الكَلامَ بلا نحْو يزينُه نَبْحُ الكلابِ وأصْوَاتُ السنانيرِ

مع العلم أن دروس النحو المعروفة (النظرية والتطبيقية) ما هي في حقيقة أمرها إلا وسيلة لغاية أسمى هي تمكين الناطقين من تحصيل ملكة تعبير سلسة النطق ، سليمة البنيان.

وفي تحديد مفهوم النحو وطبيعة وظيفته وخصائصه ومصطلحاته وجدنا أقوالا متباينة وآراء متعددة، بين القدماء والمحدثين، والكل ينظر إليه من زاوية تزداد بعدا أو قربا من زاوية الآخر، في فكر تطوريّ متتابع.

ولوصف ماهية " النحو" ، وتحديد مصطلحاته، ورصد أثره في اللسان نبسط هذه الآراء باختصار:

1 – ما رواه ابن منظور عن ابن السكيت أن أصل اشتقاق المصطلح إنما

هو من : (نَحَا نَحوه إذا قَصَدَه) ، و ذلك من منطلق التشابه بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي الذي يتمثل في القصد الذي كان المسّوغ لاستعارة هذا اللفظ، ويرجح ذلك ما رُوي عن أبي الأسود الدؤلي حين وَضَع وجوهَ العربية ، قال للناس : انْحُوا نحوَه ، فسمي (نَحْوًا) ... ويعني القصدَ والطريقَ. ([1])

2 - ويرى أبو علي الفارسي أن " النحو علمٌ بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، وهو ينقسم إلى قسمين أحدهما تغيير يلحق أواخرَ الكلم، والآخر تغيير يلحق ذواتِ الكلم وأنفسَها ". ([2])

3 - وعند علي الجرجاني : " هو علم بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرهما ، وقيل : النحو علم يُعرف به أحوالُ الكلم من حيث الإعلال ، وقيل: علم بأصول ما يعرف بها صحيح الكلام وفساده " . ([3])

4 - ويضع ابن جني تعريفا أشملَ وأدقَّ ، إذ يقول : " هو انتحاء سمْت كلام العرب في تصرّفه؛ من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والترتيب وغير ذلك، ليلحقَ من ليس من أهل العربية بأهلها في **الفصَاحة** فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإنْ شذَّ بعضُهم عنها رُدَّ به إليها ، وهو في الأصل مصدر شائع ، أي نحوْت نحْوا، كقولك قصدْت قصْدا ، ثم خص انتحاء هذا القبيل من العلم " . ([4])

5 - ومن علماء اللسان العرب المعاصرين (مهدي المخزومي) الذي يرى مصطلح (النحو) معبّرا عن مفهوم شامل يعالج صرح اللسان العربي، وينْبني على دراسة متكاملة لمستويات اللغة مثل الصرف والتركيب والأسلوب والدلالة وغيرها ... ، وكذلك دراسة مختلف الأساليب النحوية التقليدية من توكيد وشرط، ونفي واستفهام واستثناء ... واستخدام هذه الأساليب على النحو الذي يتّفق مع ما تتطلبه مناسباتُ القول أو حالُ المخاطب. ([5]) وهذه النظرة الشمولية لمصطلح النحو عند الرجل هي من وحْي الدراسة اللغوية

المعاصرة عند علماء الغرب بالذات، أولئك الذين يـرون مصـطلح النحـو (grammaire) ذا طابع شمولي يتوجّه إلى وصف بنية (اللغـة الطبيعيـة) بشكل عام، فيعالج مُكوِّناتِ مستوياتها ووظائفَ جزيئاتها، فيتغلغل أثرُه فـي مختلف أركان الكلام حتى لا يخلو ملفوظ يحمل معنى ويسد غرَضـا مـن أغراض التبليغ من أثر للنحو ملموس.

ويلاحظ أن التعريفاتِ العربيةَ التي أوردنا جزءا منها في حديثنا أعلاه ليست وافية للغرض بالمفهوم المعاصر لوظيفة اللغة البشرية، ولا هي محيطة الوصف لوظيفة النحو العميقة، وذلك لاعتمادها في الغالب على النظر في الظواهر والبنية السطحية، والآثار الملموسة [راجع العنوان **4/1**، **فقرة 4** أدناه] ، كعلامات الإعراب الظاهرة والمقدّرة. وبلغ من سذاجة الأحكام عند بعض الدارسين أنْ جعلَ الإعرابَ هو النحو، واعتقد بأنه مَنْ أظْهَرَ الحركاتِ الإعرابيةَ زادت في ميزان حسناته، ومن لم يضبط أواخرَ الكلمات بالحركات المناسبة عُدَّ مخلا بالنحو، عَيَّ اللسان ، ولا نصيبَ له في حسبته.

2/1 - النحو في المفاهيم اللّسانية المعاصرة :

النحو في المفهوم الحديث يشمل نظامين فرعيين معا هما (الصـرف morphologie والنظم syntaxe)، ولكل منهما ميزته ودوره في الإطار العام للوظيفة التي سبق تِبْيَانُها. والعلاقة بين النظامـين (الصـرف والنظم) علاقة تكامل، وهما أساس البناء القاعدي لمكوِّنات النحو الهيكلية. فالنحو باعتباره توصيفا للغة بتمامها لا بد إذن أن يلامس أسس نظام اللغة، والتي منها :

1 - **علم الصـرف Morphologie**، ويسـميه بعضـهم " الاشـتقاق" أو" التشكيل الصوتي" ، وينصب أساس نشاطه على" دراسة التغيـرات الشـكلية للكلمات (**étude des variations formelles des mots**) "، ويتضمن دراسـة نشـأة

الألفاظ ، وطبيعة حروفها ، وكل ما يعتريها من تغيّرات في البناء والوزن والصيغة... وما يقابل ذلك من وظائف دلالية ونحوية في إطار القواعد الخاصّة بكل لسان معيّن بالدراسة. وهذه القواعد هي التي تجعل للكلمة مميزاتها وخصائصها على مستوى الكلم المركّب. ولكل لسان منهجُه في تكوين الكلمات بحسب خصائصه الذاتية،[واللسان العربي ــ القائم تكوين مفرداته الغالب على ظاهرة الاشتقاق ــ] يقوم المنهج الصرفي في استغلال قوالبَ وأوزان وصيغ جاهزة محصورة العدد والغرض الدلالي ، حيث " تَصُبّ " الصُّوَيتيّات **(les phonèmes)** ، فتتقَوْلَبُ لتفي بالغرض التبليغي المطلوب، بينما نجد« الصّرف » في الألسن الأوروبية المتطوّرة قائما على استغلال ظاهرة (الإلصاق : السوابق والحشو واللواحق les affixes) كموضوع أساسي يتحكّم في التغيّرات التي تؤدّي إلى تنوّع المعاني الأساسية للكلمة وتلوّناتها.

2 - **النظْم أو التركيب (syntaxe)، ويميّز في الدراسات اللغوية الحديثة بأنه** جزء من علم النحو العام ، وينصب أساس نشاطه على " دراسة العلائق الوظيفية بين الكلمات " **(étude des relations fonctionnelles des mots)** " ، ويتضح الأثر في معالجة أجزاء الجملة، من حيث المكانة والترتيب والعلاقة بين عناصرها، وطبيعة وظيفتها، إلى غير ذلك مما يهم العلاقات الترابطية بين أجزاء الكلام، وتبيان القواعد اللغوية الخاصّة التي تحكمها، وتميّزها عن كلّ لسان من الألسن البشريّة الأخرى. كما أن" النّظم" في العربية قائم على توَخِّي معاني النحو، و معناه « أن تضعَ كلامَك الذي يقتضيه علمُ النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجَه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظُ الرسومَ التي رُسمْتُ لك ، فلا تخلُّ بشيء منها ». (6) **أي** أن ذلك لا يعني " جمعَ الكلمِ كيفما اتّفق، وإنما يقتضي تأليفها وتناسقها وتجانسها وتلاحمها، كما تتلاحم السَّدى واللُّحْمَة في النسيج وتتناسق ألوانه

ويتناسب كل لون وما يجانسه حتى يؤلف ضربا خاصا من التأليف " . ([7])

وقد انتقل هذا الفكر الشمولي في النظرة إلى طبيعة النحو ووظيفته إلى الدرس اللغوي العربي الحديث ([8])، وأفاد منه علماء العربية المعاصرون في بحوثهم، وتبنوا منهجه في التقسيم، ومصطلحاته في التعبير، فنسجوا على منوال علماء الغرب في شرحهم له وتقسيمهم إياه، وذكروا أن " المنهج التقليدي المـــتّبع في دراسة " المورفولوجيا " و" النظم " هو التحقّق من" أقسام الكلام" المختلفة (الاسم، الفعل،...) ، وملاحظة التغيّرات التي تطرأ عليها من الناحية الشكلية في الظروف النحويّة المختلفة، ووصف ترتيب هذه الأشكال في جمل تامّة طبقا لمعاني هذه الجمل " . ([9])

وبما أن رغبتنا هي التركيز مبدئيا على ميدان التراكيب حيث يظهر أثر النحو بشكل جلي، فإننا سنُنَوِّه بالنظام الثاني من حيث التدرّج في تكوين الهيكلة الأساسية لبناء النص، والمقصود بذلك هو(النظم Syntaxe)، الذي هو نظام (Système) يُعنى بترتيب الكلمات في جمل، وترسيم العلاقات بينها، وبيان وظيفة كل كلمة بحسب مقتضيات الحال، كالعدد والنوع والجنس ... ويدرس نسق العبارة البسيطة التي تردّ إلى قضية واحدة (جملة بسيطة)، كما يدرس العبارة المركّبة التي تضمّ قضايا متعدّدة (جمل مركّبة). و يرسم القواعد المساعدة على نظم الوحدات الدالّة ... وبهذه الصفة تتداخل قواعد (النظم) بقواعد (النحو) في الدرس التقليدي بوصف عامّ. ومن الملاحظ أن النحو العربي قد اعتنى منذ نشأته (القرن الأول الهجري، الثامن الميلادي) بدراسة العلة وأسبابها وآثارها، وكان العلماء السابقون يعلّلون كل ما يُصدِرونه من أحكام، رغبة منهم في تأصيل المسائل وتثبيتها، وإعطائها صبغة علمية وإقناعية، لأنهم رأوها تفسيراً للظواهر، وعليها تبنى الأحكام، مع تسويغ (إجراء حكم المقيس عليه على المقيس) . ([10])

وللتذكير فإن موضوع علم النحو – عندنا منذ القديم – هو الكلمات

العربية، من جهة البحث عن أحوالها وصفاتها، ووظيفتها في الجملة قصد تبيين المقاصد والمعاني، وبيان خصائص كل منها في الكلام، كالابتداء والفاعلية والمفعولية، أو أحكامًا نحوية كالتقديم والتأخير والإعراب والبناء ... وكان من ثمرات تَعَلُّم علم النحو صِيَانَةُ اللسان العربي عن الخطأ في الكلام ، وَفَهْمُ القرآنِ الكريم والحديثِ النبويّ فَهْمًا صحيحاً، باعتبارهما أَصْل الشَّريعَة الإسلامية وعليهما مدارُها.

1 / 3 - مصطلح النحو وتَعدّد المشارب :

لم يعد مصطلح النحو في العصر الحديث يتمتع بدلالة علمية ثابتة على علم بذاته مقصود، متعيّن بكيانه، وإنما صارت الدلالة شاملة لجملة واسعة من أنواع الدراسات تتعرض لفحص مكوّنات اللسان البشري وخصائصه ، وتختص بجوانب معينة من أركانه، ولم يعد في الساحة "نحو" واحد (une seule grammaire) بل صارت في الوجود مجموعة (أنحاء grammaires) ، وكلها يعمل على تحليل مستويات اللغة ووصف مكوّناتها وتحليل وظائفها من وجهة نظر لغوية معينة، باعتبار تطوّر مناهج البحث في الدراسات والمفاهيم والتفكير النحوي المتجدد. وتعميما للفائدة أقترح (على حضرتكم) تذكيرا ببعض هذه (الأنحاء) ووظائفها المتميزة ولو باختصار حتى ندرك بالتقريب موضع نحونا العربي في مراتبها المتشابكة :

① - **النحو التوليدي– التحويلي :** - grammaire générative transformationnelle

اقترح نعام تشومسكي (Noam Chomsky) ([11]) ، في منتصف القرن العشرين، مقاربة جديدة يمكن من خلالها للدراسات اللسانية أن تتجاوز ما كان سائدا من طرائق وصْف لبنية اللغات إلى تقديم كيفيّاتٍ أعمقَ تتناول أحوال تأويل الجمل وفهمها في أية لغة مهما كانت طبيعتها. فالنحو عند

تشومسكي ، إذن ، هو مجموعة القواعد التي تُمكِّن الإنسانَ المتكلّم من توليد مجموعة من الجمل المفهومة، ذات البناء الصحيح ، دون أن يسمعها من قبل.

ونظريته هذه هي نظام تحليل لغوي يسمح من خلاله أن تبدع جمل صحيحة نحويا لا حد لها ، وتلغى كل التراكيب المخالفة لأحكامه. فكل جملة مركبة تركيبا صحيحا ، يُفضي إلى فهم معناها، وهي بحال يحسن السكون عليه عند المتلقي – حسب طبيعة لغته وخصائصها– هي جملة نحوية (une phrase grammaticale) ، فهذا المثال : [**خرج الرجل من بيته قاصدا محل عمله صباح اليوم...**] يعتبر جملة نحوية، لأنها موافقة لنظام النحو في اللسان العربي ومعناها مفهوم. أما إذا اختل نظام تركيبها هكذا : [**قاصدا ه خرج بيت الرجل اليوم ه صباح عمل من...**] ، وبسبب مخالفتها للأحكام فهي جملة غير نحوية (une phrase agrammaticale) .

② – **النحو الوصفي :** grammaire descriptive

هو ذلك (النحو) الذي قام نشاطه والبحث فيه على أسس المنهج الوصفي الذي ظهر في أوائل القرن العشرين على يد اللغوي السويسري فرديناند دي سويسر([12]) المؤسس الحقيقي لهذا المنهج بمجهوداته البارزة في مجال تحويل البحث اللغوي. وكان هذا العالم يؤكد دائما على ضرورة تجرّد الباحث اللغوي وموضوعيته ، والتعامل مع المادة اللغوية على أساس (الشكل والوظيفة) دون إعطاء الاعتبار لأية أفكار أخرى خارجة عن اللغة نفسها. إن النحو الوصفي اليوم يهدف إلى البحث في بنيات وخصائص وتحليل ميكانيزمات اللسان وتركيبها ومستويات استعماله ومراقبة مسار تطوره ومعالجة مشاكله لتعميق فهمنا لطبيعة اللغة الإنسانية. و يكاد يكون لكل لسان نحوه الوصفي الخاص في إطار اللسانيات الوصفية العامة.

③ – **النحو الـوظيفي :** grammaire fonctionnelle ، هـو مجموعـة القواعد التي تبيّن الوظيفة الأساسية للنحـو، كدراسـة وظـائف الحـروف والأدوات بوصفها حاملة معاني، لربط والتعليق ، ووظائف الكلمات داخـل التراكيب من إسناد وتعدية ، ووظائف الجمل العامة من خبر وإنشاء ... وكل ما يساعد على أداء الوظيفة الإبلاغية العامة للغة في إطار ما يعرف بالربط بين المقال و المقام. ([13])

④ – **النحو المعياري :** grammaire normative ، هو مجموعة القواعد التي ينبغي اتباعها والتقيّد المطلق بتوجيهاتها. ومن المنهج المعياري يستمد هذا الضرب من النحو شرعيته، وذلك حين يهتم بالإجراءات العملية والنماذج الأساسية الصحيحة المبنى والمعنى التي من شأنها أن تقدم سبيلا، وتسطّر منهجا نموذجيا، وتعطي القدوة الحسنة لكل من ينزع إلى معرفة الأسس العملية المتحكّمة في التفاعلات، واقتداء الأصوب لتصحيح الكلام وصقل التعابير، بحسب ما يقضيه مطلب البيان والفصاحة في اللسان المعيّن. وليس لهذا الضرب من النحو غاية علمية واضحة غير الغاية الفنية التي تتمثل في حسن التعبير والإنشاء.

وقد رَانَ هذا المنهج زمنا طويلا على النحو التقليدي ، وما زالت آثاره ماثلة في النحو العربي إلى حد اليوم، وتختصر المنهجية في مغزى العبارات الرائجة (قل ولا تقل)، (وخارج عن القواعد). و (معضلة اللحن وسبيل الخلاص منها) تلك التي كُتبت فيها مؤلفات كثيرة شاهدة على عظم المحنة وهوْل الخطْب ، حتى أن بعضَهم قد تعرّض لمشاكل نفسية لا حصر لها بسبب (اللحن) ، واختلاف الآراء ، والتمحّك في صناعتها بالحق وبالباطل. ([14])

وتتمّ محاربة اللحن في عرف النُّحاة بالتشدد في تطبيق القاعدة بصَرامة مبالغ فيها أحيانا، وكانت خطوات هذا الطريق وبالا على المتعلمين

انعكست آثارها المُنهكة على التحصيل العلمي، فأفرزت نفورا مُذهلا من تعلم النحو العربي على وجه الخصوص ، حتى أفضى الحال في النهاية إلى تعميق فجوة الإعراض عن النحو واستغلاله، وأمست مطالبة المتعلمين بتطبيق قواعده وإظهار حركات إعرابه عملية شاقة ومؤلمة، تضاهي وقع السياط على الظهور العارية.

والنحو العربي– بطبعه – وصفيٌّ فمعياريٌّ (منذ القدم) ، وقائم على جملة من المبادئ أهمها [القياس] ، وهو أن تقيس ظاهرة ما على ظاهرة أخرى متمثلة في النص ، فكانت القواعد النحوية والصرفية و كان اطرادها على هذه الشاكلة. ولا يكاد الدارس العربي للنحو – حسب علمنا – يبدي اهتماما واضحا ببقية ضروب النحو الأخرى. وإن كان للنحو العربي بداية وصفية إلى حد كبير، فإن المتداول منه اليوم يرتكز نشاطه على الجانب المعياري ، بحيث يبدو– وهو يتناول اللغة – لا يسعى للكشف عن طبيعتها وخصائصها ومميزاتها ووصفها كما هي، بقدر ما يميل إلى إلزام المتكلمين بجملة من السلوكيات والقواعد ، بعد أن حضّر لهم أنماطا من الجمل النموذجية لينسج الراغبون على منوالها. وبالنظر إلى تطور مناهج البحث فقد تخلى الفكر النحوي اليوم عن الوجهة المعيارية (قُلْ وَلا تَقُلْ) ، واتجه وجهة البحث الوصفي، معتمداً على نتائج البحوث اللسانية المعاصرة.

2 – ركنيّة النحو في منظومة اللغة الطبيعية :

2 / 1 - مفهوم اللغة الطبيعية :

اللغة الطبيعية هو مصطلح في علم اللسانيات الحديث يشير إلى تلك اللغة البشرية التي يمكن للأطفال اكتسابها من آبائهم أو مربيهم بشكل عفوي دون تعليم أو إرشاد، وأن يتعامل الناس معها كلغة (أم) ويطلق عليها مصطلح " لغة حية ". أما " لغة ميتة " أو " لغة منقرضة " فهو مصطلح

يشير إلى لغة طبيعية لا يوجد لها متكلمون كلغة (أم) إلا في الماضي.

إن اللغات الطبيعية تختلف عن اللغات الاصطناعية مثل اللغات الشكلية أو لغات البرمجة، أو عن الوسائل التواصلية الموجودة لدى الحيوانات من ناحية أخرى. ومن المعلوم أن اللغات الطبيعية أغلبها لغات صوتية، بمعنى أن الصوت البشري هو أساس بنائها حيث يدخل في تشكيل الملفوظات، والكلمات وما يتركب منها في مجمل السياقات كالجمل والنصوص والخطاب ...

2 / 2 - موقع النحو في بنية اللغة الطبيعية :

و بالنظر إلى سياق المصطلحات البنيوية في المعادلة المبينة أدناه يمكننا استشفاف ركنية النحو وأهميته في بنية اللغة الأساسية. إن اللغة في ذاتها ـ وبغض النظر عن العوامل الخارجية الأخرى غير اللغوية، والتي تتدخل فعلا في تحديد أشكـــال الدلالات وألوانها، وتفسير مراميها ـ تبدو لنا مكوّناتها على هيئة معادَلة شكليّة بسيطة ، تظهر أطرافها على هذا النسق:

اللغة ⇐ المعجم + النحو + (السياق المقام ومقتضى الحال)

(Lexique) + (Grammaire) ⇒ (Contexte)

(langage)

متن اللغة ، أي جميع الوحدات النحوية والمعجمية التي يمكن أن تؤلف جملا وكلاما مفيدا

قواعـد وقـوانين لغويـة ضـابطة تحـدد وظيفـة كـل وحدة من مكونـات الجملـة وتـتحكم فـي العلاقـات الترابطية فيما بينها.

عناصر غير لغوية تدخل في تحديد معنـى الكـلام ، كشخصـية المـتكلم وشخصية المخاطب وما بينهما من علاقات وما يحيط بالكلام من ملابسات وظروف ذات صلة به .

و تفسير المصطلحات المكوّنة للمعادلة هو أن"معجم" يشير إلى" متن اللغة " المتمثل في الجانب البنويّ، كالأصوات اللغوية، والألفاظ، والكلمات، والصيغ، والأوزان، والتراكيب، والخطاب... ويشير اصطلاح " نَحْو " إلى مجموعة القواعد، والقوانين، والضوابِـط التي تتحكم في بناء الكلم المفرد، وعلاقة الوحدات المعجميّة والدلالية في سائر أنواع التراكيب اللسانية، ثم بيان وظيفة الكلمة في الجملة. وهي الوظيفة التي يركّز عليها النحو التقليدي في اللسان العربي. وباختصار فإن النحو هو"ناموس اللغَة " الذي يحكم علاقة الكلمات فيما بينها بغـرض التبليغ بتأدية المعنى، وتواصل الأفكار، والتعبير عن الأغراض.

ويبقى الترتيب الشكلي لطرفي المعادلة – المرسومة أعلاه – منطقيًّا يحقق فكرة " الوجوديّة " التي تسيّر منطق الأشياء ؛ فإذا كانت اللغة في المتعارف عليه عند ابن خلدون هي " عبارة المتكلّم عن مقصوده ، وتلك العبارة عمل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلا بدّ أن تصير مَلَكة مُتقرّرة في العضو الفاعل وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحهم". ([15]) فإن النحو يعدّ عاملا أساسيا في توجيه الفعل اللساني ــ حين إنتاج الكلام ــ إلى الصّواب، وفْق ما تقتضيه قواعد اللسان المعيّن، (اللسان العربي عندنا مثلا).

ولما كانت معرفة المفردات والجمل والتراكيب سابقة للمعرفة بقواعد النحو وأحكامه ، حسب الترتيب المنطقي للفعل اللغويّ المتعارف عليه ، فإنه بالضرورة يكون اكتساب " المعجم = متن اللغة " سابقا عن اكتساب" النحو = القواعد المنظمة ". ويكون مثل" النحو" في هذه الحال كمثل قانون المرور في ذهن السائق، فحفْظ القانون مثلا على ظهْر قلب لا يُجدي نفعا ما لم يكن

السائق قد تَدرّب على السّياقة العمليّة بالشكل المطلوب، كذلك الحال فحفظ متون القواعد وترتيلها والتشدق برخوها وصلبها، واستحضار شاردها وواردها ... ، غير مجدٍ، ما لم يكن له أثر بيّن في إقامة اللسان وسلامته من اللحن في الشكل والاعتساف في المعنى.

3 - النحو علم و حركات الإعراب مظهر من مظاهره :

يخلط كثير من الدارسين إذ يعتقدون أن (النحو) في مفهومه العام هو (الإعراب)، ويكرسون جهدا كبيرا في تتبع مساربه وتأويلاته، والخوض في متاهاته إلى درجة الخصومات والأحقاد أحيانا كثيرة. ولكن الواقع أن الإعراب بالحركات هو جزء أطلق مجازا على الكل الذي هو النحو، ورسخ الاعتقاد عند أناس – وكثير ما هم – في أن من لحن في شكل كلمة ، فنصب فاعلا ، أو رفع مفعولا به ، أو كسر اسم كان أو ... أو وضع كلمة في غير محلها ، يكون قد جهل النحو بكامله وأساء الأدب في حق القواعد ... والحق غير ذلك تماما، فليس النحو هو الإعراب المتمثل في الحركات والسكنات لوحدها ، ولكنها مظهر من مظاهره التوضيحية فحسب ، ومن الممكن أن يستقيم الأمر في جزء من اللغة كبير من دونها.

3 / 1 - مفهوم الإعراب في لسان العرب :

الإعراب هو الإبانة والإفصاح، وأعربت عما في نفسي أي أبنت وأظهرت ما أريد. وفائدة الإعراب : تبيان المعنى والاستعانة به على فهم السياقات والتركيبات، التي لا تتضح في كثير من الأحيان إلا بضبط الكلمة وتبيان موقعها الإعرابي. و للإعراب في اللسان العربي قصة " نسج النحاة خيوطها بمهارة وإحكام". ([16]) وجدير بالذكر أن الإعراب موجود في ألسن أخرى مثل : الهندية، والعبرية، والحبشية، والجرمانية، والمصرية القديمة...

إلا أنه إعرابٌ قاصرٌ ببعض الكلمات دون بعض. ولم يكن النحو أبـــدا هـــو الإعراب وحده وإنما هو جزء منه لا مرادف له، والإعراب ظاهرة لغوية أدائية حتى أنه قد يعرب المتكلم دون دراية بقواعده، ويرفع صوته مفتخرا :

ولستُ بنحويّ يَلوكُ لسانَه ولكنِّي سليقيٌّ أقولُ فأعربُ

3 / ₂ - أثر الحركات الإعرابية في تحديد وظائف الكلم وفهمها :

إن حركات الإعراب ليست شيئا زائدا أو ثانويا، بل لها وظيفة بيانية ونحوية يتضح بها المعنى ويظهر، وعن طريقها نعرف الصلة النحوية بـــين كلمة وأخرى في الجملة الواحدة ، أو في الجمل المتجـــاورة ، وربـــط هـــذه الصلة أو العلاقة وترسيخها هي واحدة من أهم الوظائف الأساســـية للنحـــو العام. وربط بعض المحدثين ظاهرة الإعراب بتغير الحركات، فكان الإعراب عنده هو " تغيّر العلامة التي في آخر اللفظ لسبب تغيّر العوامل الداخلة عليه وما يقتضيه كل عامل ، وفائدته أنه رمز إلى معنى معيّن دون غيره كالفاعلية والمفعولية وسواهما " . ([17])

لقد وجدنا من الناس من يحصر النحو في هذه الدائرة الضيقة ، ويعدّ على المتكلمين زلاتهم في الرفع والنصب والجر... ويعيب عليهم الانزيـــاح عن تحقيق الحركات الإعرابية، كما وجدنا من يرى أن هذه الحركات قليلـــة الجدوى و " ليس لها معنى في لغة العرب، ولا تعدو أن تكون حركات يُحتاج إليها في الكثير من الأحيان لوصل الكلام وتسهيل النطق" . ([18])

كما يسمح لنا ظهور حركات الإعراب بعمليات عـــدة منهـــا (التقـــديم والتأخير) في عناصر الجملة والجمل البسيطة والمركبة ... ، بحسب حاجتنا

إلى تلوين الدلالات وتعميقها، والمحافظة على توازن الجمل في بيان مراتب مكوناتها النحوية في نسق الكلمات والمورفيمات النحويـــة (les morphèmes grammaticales) ... ، فالفاعل يبقى فاعلا وإن أخّرناه، والمفعول يبقى مفعولا وإن قدَّمناه، و مع هذا الإيجاز توسّع في تعبير عن المعـــاني الجديـــدة دون زيادة حجم الملفوظات أو التراكيب. والواقع أن اللسان العربي، كبقية الألسن الحية، يتوفّر على قوانين ثابتة تضبط خصائصه في تركيب الكلمات وتنسيقها لإفادة المعنى ، والإعراب وسيلة تظهر الوظيفة أو الوظائف فيتضح المعنى وتتم الفائدة ، كما قال عبد القاهر: " قد علم أن الألفاظ مغلقة علـــى معانيهـــا حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان الكلام ورجحانه حتى يعرض عليه " . ([19])

4 - متاعب المعايير الضبطية في النحو العربي قديما وحديثا :

4 / 1 - التكييف التربوي للقاعدة النحوية :

يتلخّص الأمر كلّه في القاعدة التربوية القديمة- الجديدة التي ترى مهمة النحو العربـــي الأساسية في تدريب و توجيه (منتج الكلام) إلى" **انتحاء سمت كلام العرب**". وهذه نظرة صائبة، تُظهر الغرض التربويّ من « تَعَلُّم » النحو غير منفصل عن وظيـــفة اللغـــة الأساســـية، والحال هكذا منذ عهد العلامة اللغوي أبـــي الفتح عثمان بن جني (أواخر ق 4 هـــ)، الذي يرى أنه من تمام الغرض التربويّ للنحو أن يلتحقَ " **مَنْ ليْـــسَ من أهْل اللغة العَربيّة بأهْلِها في الفصَاحَة فينطِقُ بهَا ، وإن لم يَكنْ مِنهم ...**". ([20]) ومن هذه المقولة بات واضحا للناظر أن النحو العربي قد أسس مبدئيا على المعيارية والنفعية، وإن كانت قواعده قد استنبطت من النظر في كلام العرب

ونصوصها ، ووصف كلامها.

وحتى إذا نظرنا إلى النحو العربي من وجهة أخرى- بعد استعراض سريع لبعض أبوابه ومواضيعه- وجدناه إشباعا لحاجات فرضتها الفطرة البشرية، وضرورات اقتضتها المعاملات الاجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها، وأن الإنسان إذا أوجد هذه الأمور في لغته إنما هي لغاية سامية. (ولنا عودة إلى تداولية النحو العربي في مقال منفصل بإذن الله). لكن مرونة الأحكام النحوية في اللسان العربي قد كانت عبر التاريخ عاملا مشجعا على تضارب الآراء والتخريجات، والاتهامات الجائرة، وصار الشطط فيها طريقا ممهّدا للمنافسة غير العلمية والعداوات غير المبرّرة، فالتهبت نار النقد اللاذع ومست عصرئذ جل المنظرين للغة والنحو، فلم يعد يسلَم من أوارها حتّى كبار العلماء الذين نَحسبُهم مراجعَ في اللغة وبلاغتها، مثْل أبي عُبَيدة معمَّر بن المثنّى التميمي (ت 209 هـ- 824 م)، الذي زعموا أنه كان " مُخِلاًّ بالنحو كثيرَ الخطأ " . ([21])

والمعروف لدى أهل النظر في تاريخ نشأة قواعد النحو العربي وأسبابها أن الاهتمام الأول بالنحو كان شديد الارتباط بالحاجة إلى المحافظة على سلامة اللغة من اللحن والفساد ، وتوجيه المتكلمين إلى تعلم ما يوفر لهم ضمان" الاستعمال الجيد للغة " والوقاية من فساد اللغة وإفسادها، ويبقى الغرض العميق والهدف الأمثل متمثلا في كيفية يسهل بها للخلق فهم معاني القرآن الكريم واستنباط أحكامه على بيّنة ودراية وسداد . وما زلنا نعتقد بأن هذا الغرض بالذات (غرض تسهيل الفهم) هو الدافع الأساسي إلى اعتماد وسيلة قوامها الحواس، مؤيدة بالتجارب العملية قبل الانتقال إلى الصياغة النظرية والمدركات المنطقية.

ويظهر ذلك واضحا من آثارهم العلمية الأولى، فالتفسير مثلا بالأثر كان أسبق من التفسير بالتأويل، وقراءة القرآن بالتلقي كانت سابقة على التنظير في علم القراءات، والمنقول من **علم النحو** كان سابقا على المعقول... أي أن علوم اللسان العربي المعروفة الآن، ومنها النحو، كان يتدرج في تطوّر درسه وفهمه من المحسوس إلى المجرّد ، ومن العملي إلى النظري، وفق طبيعة تطوّر الفكر البشري، ولكونه شديد التعلق بالمحسوس سهلت عليه المعرفة العملية وتقدّم فيها، وذلك لأن المعرفة العملية أسبق وأسهل للتعلم من المعرفة النظرية ([22]) التي تتطلب منه قدرا راقيا من النشاط العقلي والتجريد المعقد.

4 / 2 - عويص الصناعة النحوية وليد فرضيات مصطنعة :

وكان من عويص دروس النحو ومتاعبه ما أوجده بعض النحويين من افتعالات عند خوض البحث في العلة والعامل وتقدير المحذوفات من الألفاظ والمعاني ، واندفاعهم إلى مقررات كان الكثير منها ناتجا عن فرضيات مصطنعة. وكاثر بعضُهم بعضا بغريبها، فغلب الجدال حقا وباطلا، وتوسع شق الخلاف تبعا لذلك إلى مستوى طغى فيه جانب الصناعة النحوية، وفتح الباب واسعا للنقد والبحث عن البديل. وقد علمنا مما سبق أن العقل العربي الأول (البدوي الأصل) يميل إلى المحسوس والملموس، ولم يكن مهيأ لاستقبال هذا التنظير العقلي العميق للنحو مثلما كان الحال في البيئة اليونانية حيث مولد النحو و مرباه ([23]) قبل أن يداهمنا بركبه.

وبالنظر إلى ما سبق من أحكام ، وبالتمعن في طبيعة العقل العربي في زمان التقعيد النحوي الأول (ق1 هـ) وبعده البلاغي ، يمكننا إدراك جملة الأسباب والمسببات والمبررات التي دفعت جمعا كبيرا من دارسي اللغة

والنحو إلى اتباع الطريق المحسوس، وذابوا بعدئذ في طبيعة النحو الشكلية الملموسة ، فلم يكن لمنهج عبد القاهر العقلي من اهتمامهم نصيب ، وقد يكون ذلك بسبب " ضعف عقولهم وفتنتهم بنحو سيبويه " ([24]) الذي مثل " كتابه " قيدا للعقل والبحث زمنا طويلا اكتفى فيه العلماء الذين جاؤوا من بعده بالشرح والتحقيق .

وبقي التعقيد ملازما لدروس النحو ، وكثر الفساد في أعراض اللغة ، وكثرت الشكوى من قيود القواعد وأهوالها إلى أن وجه ابن مضاء القرطبي انتقاداتٍ كثيرةً لنظرية العامل ، والأقيسة النحوية متهما إياها بالقصور والوَهن ، ونبّه إلى الحاجة الماسة لتعديلها. وكان من المفروض أن تعالج مثل هذه القضايا أولا في باب (النحو التعليمي) حتى يُقدم للناشئة قسطُ ما ينبغي أن يتعلموه سهلا ميسورا.

وسار الحال هكذا إلى أن ظهرت مناهج تفكير جديدة في الدرس النحوي تنزع إلى التخلص من القيود والفرضيات والقواعد المعقدة ، وتنطلق إلى التسهيل ، و يعدّ ابن مضاء القرطبي (ت 592 هجرية) في مؤلفه " الردّ على النحاة " من أوائل الثائرين، وفاتحة التفكير النحوي المتجدد القائم على المنهج الوصفي (الشكلي) . وانطلاقا من مذهبه الظاهري قام الرجل بتحليل كثير من الصيغ النحوية تحليلاً هو أشبه بما دعا إليه علم اللغة الحديث ، إلا أن ما بذل من جهود تتالت من بعده حتى اليوم لم تستطع إزالة أسباب التشكي ومظاهر التبكّي، وبقيت رهينة صدق نوايا المربين المطبقين في ترجمتها إلى واقع لغوي ونحوي يلبي متطلبات اللسان العربي الثقافية والعلمية.

و حمْلا على ما سبق يكون من الخطل الاعتقادُ بأن النحو وحده كفيل بإصلاح كل الأخطاء والأغلاط واللحن، أو امتلاك زمام اللغة. كما أن الاعتقاد بأن النحو ترياقٌ شافٍ من كلّ عيوب العيّ واللحن والخطل في اللغة

هو اعتقاد باطل ، وقد أثبتت التجربة التربوية فشلَ هذا الاعتقاد في مدارسنا. والحقّ أن النحو وسيلة لا غاية، وتمثُّله في اللسان حتى يصير ملكة متمكّنة أمر محمود.

4 / 3 - قواعد النحو التعليمي ؛ أتيسير هي أم تعسير ؟

إنه منذ أن وجه الجاحظ تعليقاته إلى معلمي اللسان العربي و المشتغلين به، ومحاولات فهم مضمون رسالته تتكرر تباعا ، فقد نفح المعلمين بنصيحة لا يزال صداها يتردد دون أن يجد من المعنيين بالموضوع من يرعى تطبيقها على الوجه الأكمل. قال الجاحظ : " **أما النحو فلا تشغل قلب الصبي منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن** ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه وشعر إن أنشده وشيء إن وضعه، ومما زاد على ذلك فهو مشغله عما هو أولى به من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع ... **وعويص النحو لا يجدي في المعاملات ولا يفطر إليه شيء** ". ([25]) وأرى هذا القول صائبا شاملا لمفاصل التربية وتعليم القاعدة النحوية واستخلاصا لوظيفتها الأساسية. فما أحوجنا اليوم إلى تمعّن هذه الآراء ، وتوجيه اهتمام خاص إلى عمليات " شحن رصيد متن اللغة " بما يحتاج من فصيح المفردات وعيون فن القول والتراكيب.

وجاء ابن خلدون بعد الجاحظ بنظره الثاقب ليقوم بتشخيص محكم للعلاقة بين حفظ قواعد النحو واستعمالها فقال : " إن (صناعة النحو) إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة [اللغة] ومقاييسها خاصة . فهو علم بكيفية لا نفس كيفية ... والعلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل. وكذلك تجد كثيرا من جهابذة النحاة ، والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سُئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته ، أو شكوى ظلامة

و قصد من قصوده ، أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن ، ولم يجد تـــأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي" . ([26])

ومن الملاحظ أن الدعوة إلى تيسير النحو التربوي (التعليمي) متواصلة منذ القدم، وكان الأستاذ شوقي ضيف (1910م – 2005م) من أوائل علماء العربية ، في القرن العشرين ، الذين فجروا قضية إعادة التفكير في مسائل النحو العربي ولفتوا الانتباه إلى ضرورة النظر في كثير من مسلماته وطرائق تدريسه ، بحيث ينصب الاهتمام على المفاهيم حتى تتكيف مع ما تقتضيه التربية الحديثة ، أي ينصبُّ على تبسيط عرض القواعد على المتعلمين وكيفية تعليمها ، أما النحو العلمي فلا سبيل إلى تغييره أو تبديله ، أو التخلي عنه ، لخصائص اللغة التي أسلفنا ، وهذه هي الأساليب الإجرائية التي نبّه إليها علماء اللغة اليوم وشرحوا مبادئها، ودعوا إلى واجب التفريق بين العِلْمين : النحو العلمي النظري، والنحو التعليمي التربوي. ([27]) وكان من ثمرات الدعوة التيسيرية للنحو ظهور مؤلفات في النحو تستحق القراءة والعمل بها.

ومع ذلك بقيت ظواهر ضعف طلاب الجامعة في التطبيق النحوي ، وفساد ملكتهم اللغوية والنحوية ماثلة للعيان ، وهم عند الحاجة إلى التعبيـــر عن أفكارهم يرسلون الكلام دون مراعاة ما يقتضيه الموقف من الضـــوابط التي تقود المتكلم إلى (انتحاء سمت العرب) ، بل هم عنها في غفلة ساهون، وعند التنبيه يتحججون بالبحث عن منافذ الحرية ، ويستمرون فـــي إرســـال الكلام على عواهله فجا سبهللا ، يقرع المسامع غثه وسمينه حتى الغثيـــان ، كأن لسان حالهم يقول لمن يعترض: " هوّن عليك فالمهم نتفاهم ". وكثيرا ما سمعنا هذه العبارة من أشباه المتعلمين، والتي هي في واقعها العملي " مروحة للكسالى" ، وعنوان للردة اللغوية والجهل المطبق، فلو أننا راقبنا غيَّهم اللغوي

وتفاصيل تعلقهم بالوارد الأجنبي من التعابير على ركاكتها لوجدنا لديهم حرصا شديدا على سلامة الضوابط اللغوية الأجنبية ، كما يحرص على سلامة ربطة عنقه ونظافة طوق قميصه عند لقاءاته بالوافد الأجنبي ، بغية الظهور بمظهر الحي المتطور المتحرر، الجدير بصفقة العلاقات الاجتماعية وملذاتها.

كما لاحظنا بمرارة في أيام العمر الطويلة التي قضيناه نعلّم اللغة وقواعدها أن الكثير الكثير من التلاميذ والطلبة الجامعيين (وحتى أهل الاختصاص منهم) يتعسفون عند تطبيق القواعد العربية ، بل قد يتبجحون بقصم ظهرها ولا تجد للنصيحة عندهم أي اعتبار، حتى إذا ما تخرجوا بالشهادات العليا ومسكوا وظائف تتطلب (فن القول) انتبهوا إلى ضعفهم ، فلا مبالاة لضياع عهد ولا لحساب ونقد ، وعلى لغة الضاد أن تستصرخ متى شاءت ، ولات وقت استغاثة.

لقد آلمني (يوما) نقد لاذع قرأته في صحيفة جزائرية يقول : " تمتلئ نشرات الأخبار المحلية الناطقة بالعربية بإذاعة (....) بأخطاء كثيرة تخدش صفاء لغة الضاد، نطقا ومعنى ومبنى، وهو ما يجعل المتلقي في حيرة من أمره، هل هذه لغة عربية أم أنها لغة وليدة نشأت لتوّها ؟ **ويعتقد كل من سمعها بصوابها ، وأن الشاذ هو الصواب على قياس " رب خطأ شائع خير من صواب مهجور" رغم أن هذا المثل المشهور ما هو إلا ضرب للقواعد القياسية في النحو، وتغطية لفشل البعض في معرفة الصواب في اللغة العربية السليمة من الصحفيين العاملين بالإذاعة رغم أنهم من حملة الشهادات الجامعية !** " ([28]) وسكت الناقد عندها ، وكأن ما قيل إبداع أو شعر مدح وإطراء سافر ، يستدعي (حث التراب) في وجه قائله.

وأعتقد أن في الدنيا الآن أمما حية تحترم لغتها وتتخذ منها عنوانا لشخصيتها، فتغار عليها أبد الحياة، ولا تسمح لأي مخلوق مهما علت درجته أن يمسها بأذى ولو كان لحنا وسوء استعمال، عبر التاريخ قديما وحديثا. وبالصرامة العلمية والولاء القومي ثبتوا مقومات الهوية الثقافية واللغوية. فهذا مثلا رئيس الوزراء البريطاني (السير ونستون تشرشل 1874- 1965) لم يمنعه أوار الحرب العالمية الثانية أن يوجه نقدا مؤلما إلى" رئيس المخابرات العسكرية لأخطاء في **النحو والبلاغة** في تقاريره. وقال للمسؤول الكبير في رسالة أن عليه قراءة مؤلف (فاولر) في الاستخدامات المعاصرة للغة الانجليزية قبل أن يكتب شيئا ". ([29])

إنه في الوقت الذي نسكت فيه نحن العرب اليوم عن فساد اللغة ونتبجّح بلكنة أجنبية أو (بهجنة) لغوية – كما يسميها أستاذنا عبد الرحمن الحاج صالح – أو في أفضل الأحوال نضغط نحن على مواقع الحركات (الضم أو الكسر أو الفتح ، والسكون...) في فعل أشبه بمن ينبش القبور بحثا عن كنوز دفنت مع الأموات ....، يحدث ذلك عندنا، بينما نلاحظ من جهة أخرى وبكل إعجاب مدى تفاني أقوام آخرين في خدمة (لغتهم ونحوها) . وللتواصل فيما بينهم وتلاقح الأفكار المستمر والسريع جعلوا لهما موقعا على شبكة الانترنيت منفصلا يقدم خدمات جليلة في شتى مجالات علوم اللغة وقواعدها، خدمة مجانية للسانهم ولسان غيرهم. ([30])

والخلاصة من كل ما سلف أن قواعد النحو العربي ليست بدعا بين الأمم، فكل أمة لها قواعد وأنظمة تلتزم بها في تأليف كلامها، ولكن السؤال المطروح بإلحاح هو : لماذا يتنكّر كثير من المتكلمين والمثقفين والطلاب والساسة للغتهم وضوابطها ويحجمون عن بناء كلامهم على أصول علمية كما ينبغي لجلال اللغة ومكانتها في المجتمع المتحضر ؟ ثم أين مكامن

الخلل أفي اللغة هو ونحوِها ، أم هو في قصورهم هم عن إدراك مقتضياتها؟ لا ريب في أن الضعف ضعفهم ، وسببه الاستهتار بأهمية وسيلة التبليغ في العلاقات الاجتماعية ، وأن ضعف هذه الوسيلة لديهم قد يسبب لهم غموض التواصل أمام مجتمع حساس يضحك من ركاكة تعابيرهم وانحراف مقاصدها.

إن ضرورة النحو لنظم الكلام وصقله (كما سبق) لا يماري فيها أحدٌ ، وشقه التطبيقي أهم من النظري، وأثره في تطويع السليقة اللغوية يظهر بالدربة والمران ، ثم إن النحو لم يكن أبدا منحصرا في قواعد نظرية تحفظ على ظهر قلب ، ولا هو قواعد محنطة تنظر ولا تستعمل. ولأجل أن يعاد للقاعدة النحوية اعتبارها التربوي التصحيحي ينبغي إمعان النظر في إمكانات تلبية الحاجة الملحة إلى تعلّم النحو العربي وتذليل صعابه... ، ولا يتسنى ذلك – في رأينا – إلا بالالتفات الجاد إلى صيحات المستغيثين من هول الصناعة النحوية وتعقيداتها ، ثم اشتغال المفكرين التربويين بالبحث المتواصل للإجابة عن أسئلة (الإشكاليات) المطروحة بالإلحاح منذ القديم ، والمتمثلة في جملة تساؤلات منها : **ما هي أسباب نفور المتعلمين الحادّ من مادة النحو وتطبيقاتها ؟ وكيف تذلل فتحبّب إلى النفوس؟ ... ثم ماذا نعلّم من القواعد النحوية والتراكيب اللغوية؟ وكيف نعلّمها ؟ وصفات مَن يعلّمها؟ ومتى ولمن ولماذا ؟** ... وبهذا الفكر الخلاق وحده – في نظرنا – ستُوجد حلولٌ للتعقيدات النحويّة المزمنة ...

ثبت المصادر والمراجع

1. إبراهيم أنيس, من أسرار اللغة, مكتبة الأنجلو – المصرية, ط6 ، القاهرة 1978م.
2. إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1959م .
3. ابن منظور المصري ، لسان العرب، ج15 ، مادة [نحا] .
4. أبوعلي الفارسي، التكملة، وهي الجزء الثاني من " الإيضاح العضدي " ، تحقيق حسن شاذلي فرهود، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984م .
5. أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح. محمد علي النجار، المكتبة العلمية بيروت . ج1 .
6. تمام حسان ، اللغة معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1979.
7. الجاحظ ، الحيوان، تحقيق يحي الهاشمي، دار ومكتبة الهلال 1997م ، المجلد 1 .
8. جريدة الشروق اليومي الجزائرية، العدد 2469 ، ليوم 30 /2008/11 .
9. جريدة الشرق الأوسط (صدرت في لندن)، العدد 8605 ، ليوم **20** يونيو 2002 .
10. الأزهري ، تهذيب اللغة. الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة 1967. الجزء 1 .
11. محمد التونجي وراجي الأسمر، المعجم المفصّل في علوم اللغة (الألسنيات) ، دار الكتب العلمية بيروت، ط/ 1414هـ، ج 1 .
12. محمود السعران، علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي . دار الفكر العربي ، القاهرة 1962.
13. مهدي المخزومي، في النحو العربي ، نقد وتوجيه،المكتبة العربية، صيدا، بيروت 1964.
14. نعام تشومسكي، اللغة ومشكلات العقل، تر.حمزة المزينيدار، دار طوبقال، المغرب، 1995م.

15. عباس حسن ، النحو الوافي، دار المعارف بمصر (د.ت). ج1.

16. عبد الرحمن ابن خلدون ، مقدمة. طبعة الجزائر 1984.

17. عبد الرحمن الحاج صالح :

- " النحو العربي ومنطق أرسطو". مجلة كلية الآداب, جامعة الجزائر, العدد1، (1964م).
- " أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية " في مجلة " اللسانيات" ، العدد 4 ، 1973 – 1974 .

18. عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1413 هـ / 1992 م .

19. علي بن محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت 1990

20. سالم علوي ، وقائع لغوية وأنظار نحوية ، ط. دار هومة سنة 2000 م .

25 - J. Dubois et col. Dictionnaire de Linguistique, Larousse, Paris 1973 .

26 - Swald ducrot & Tzvetan Todorov , dictionnaire encyclopédique des Sciences du langage .éd. du Seuil , Paris 1972.

27 - http : // grammaire.reverso.net /

http : // www.langue-fr.net /

http : // lang.arabe.free.fr / index.php

الهوامـــــــش و المراجـــع

[1] – ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص 309 –311 ، مادة [نحا] .

[2] – ينظر" التكملة "، وهي الجزء الثاني من " الإيضـــاح العضـــدي " ، تحقيق حسن شاذلي فرهود، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984م ، ص 3 .

[3] – علي بن محمد الشريف الجرجاني ، كتاب التعريفـــات ، مكتبـــة لبنان، ساحة رياض الصلح ، بيروت 1990 ، ص 259 .

[4] – أبوالفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح. محمد علي النجار، المكتبة العلمية بيروت . ج1، ص .34

[5] – مهدي المخزومي، في النحو العربي، نقد وتوجيه،المكتبة العربية، صيدا، بيروت 1964، ص 17–18

[6] ــ الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. تحقيق السيد محمد رشيد رضا ط.دار المنار 1936. ص 64

[7] ــ سالم علوي، وقائع لغوية وأنظار نحوية، ط.دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر 2000 م . ص 25

[8] – و ينظر في ذلك : Oswald ducrot & Tzvetan Todorov ,
- dictionnaire encyclopédique des sciences du langage .éd. du Seuil Paris 1972.
- J. Dubois et col. Dictionnaire de Linguistique, Larousse, Paris 1973

[9] – محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي. دار الفكر العربي، القاهرة 1962 . ص 246

[10] – محمد التونجي وراجي الأسمر، المعجم المفصّل في علوم اللغة (الألسنيات)، دار الكتب العلمية بيروت، ط/ 1414هـ ، ج 1 ، ص 447.

[11] – أفرام نعام تشومسكي (Avram Noam Chomsky) (ولد في7 ديسمبر 1928 فيلادلفيا، بنسلفانيا) . أستاذ جامعي مدى الحياة في اللغويات في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. و كثيراً ما تعتبر نظريته هذه أهم إسهام في مجال اللغويات النظرية في القرن العشرين. وبالإضافة إلى عمله في اللغويات، فهو معروف على نطاق واسع كناشط ثقافي وسياسي. وقد اختير في أحد الاستفتاءات الثقافية في الولايات المتحدة ليكون ضمن أهم ثلاث شخصيات ثقافية على قيد الحياة في هذا القرن.

[12] - هو (Firdinand de Saussure 1857-1913) لسانيّ من أصل سويسري، ولد في جنيف ودرس بها، ثم في ليبزيغ (Leipzig) . كان أول كتبه :

" Le mémoire sur le système des voyelles dans les langues Indo- européenne"

ألفه وهو ابن العشرين من العمر. ناقش أطروحَة حول " أصول اللغة السنسكريتية " سنة 1880م، فأصبح أستاذ السنسكريتية (اللغة الهندية القديمة)، والنحو المقارن في جنيف . حاضر في اللسانيات العامّة، واشتهر بهذه الدروس التي جمعها طلابه فيما بعد ونشروها سنة 1916 (3 سنوات بعد وفاته) في كتاب عنوانه " دروس في اللسانيات العامة – Cours de Linguistique général ". فاعتبر بذلك أبَ اللسانيات المعاصرة، إذ ذلّل صعوباتِها وقرّبها إلى الأفهام بإنجازه مجموعة من المقاربات البنوية والدلالية.

[13] – راجع تمام حسان ، اللغة معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1979، ص 366 – 37

[14] – تذكّرْ مثلا محنةَ سيبويه مع الكسائي في المسألة (الدبورية)، وخروج سيبويه منها منكسرا

[15] – تذكّرْ مثلا محنةَ سيبويه مع الكسائي في المسألة (الدبورية)، وخروج سيبويه منها منكسرا حتى مات.

[16] – عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة. طبعة الجزائر 1984 . ص 712

[17] – إبراهيم أنيس, من أسرار اللغة, مكتبة الأنجلو– المصرية, ط6 ، القاهرة 1978م ، ص198.

[18] – عباس حسن ، النحو الوافي، دار المعارف بمصر (د.ت). ج 1 ، ص 44

[19] – إبراهيم أنيس ، من أسرار اللغة, ص237 و 242.

[20] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1413 هـ/ 1992 م. ص 28

[21] – ابن جني، الخصائص ، ج1 . ص 34 .

[22] – مقدمة معجم تهذيب اللغة للأزهري ، ج1، ص 12

[23] – راجع تشومسكي، اللغة ومشكلات العقل، تر.حمزة المزينيدار، دار طوبقال، المغرب، 1995م. ص 154

[24] – للمزيد من المعلومات في هذا الشأن يراجع أستاذنا عبد الرحمن الحاج صالح في موضوع له بعنوان " النحو العربي ومنطق أرسطو". مجلة كلية الآداب, جامعة الجزائر, العدد1, (1964م).

[25] – إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1959م ، ص18 – 21.

[26] – الجاحظ ، الحيوان، تحقيق يحي الهاشمي، دار ومكتبة الهلال 1997م ،

المجلد 1 ، ص 91

[27] – المقدمة ، ج2، ص 729 ، وما بعدها .

[28] – نقلا عن جريدة الشروق اليومي الجزائرية، العدد 2469، ليـــوم 30 /2008/12 ، ص 2 (مراصد الشروق).

[29] – نقلا عن جريدة الشرق الأوسط (صدرت في لندن)، العدد 8605 ، ليوم 20 يونيو 2002

[30] - http:// grammaire.reverso.net/
http:// www.langue-fr.net/
http:// lang.arabe.free.fr/index.php